المســافـر..

أصعب شيء على المرء أن يصنع المعروف ثم يتبين له أنه وضعه في غير أهله، وأصعب منه أن يصنعه في أهله ثم لا يلقى منهم سوى التنكر والجحود ، والتجاهل والجفاء، بل القسوة والظلم اللذين يهضمان حقه ، ويكسران خاطره ، ويقصان جناحيه فلا يقوى بعدها على التحليق ثانية في فضاء الأمنيات ..!!

هكذا حكم عليه الأهل ، بعد خمس سنوات عجاف قضاها في غربة كالحة ، وعمل شاق دءوب لا يتناسب ومؤهلاته العلمية .. كان عليه أن يلقي بشهاداته الجامعية في أقرب سلة كي يتمكن من الحصول على هذا العمل ، كان عليه أيضاً أن يتنازل عن بعض مبادئه ، وأن ينحِّي كبرياءه جانباً ، وأن يميل مع الريح حيث مالت حتى لا ينكسر عوده ، ويتبدد في لحظة من اللحظات أمله.

في غربته كان يزهد في كل متع الحياة .. يزهد في التنزه .. يزهد في أطايب الطعام ، وأفخر الثياب ، ومع هذا كان حريصاً على هندامه وأناقته البسيطة التي لا تلفت إليها الأنظار، ولكنها أناقة من نوع خاص، أناقة رجل مسلم حريص على نظافة مظهره، قدر ما يحرص على طهارة جوهره، ونقاء سريرته ..!

كان يؤثر أهله بكل راتبه إلا جزءاً ضئيلاً يكفي حاجته الضرورية في غربته، يرسل هذا الراتب كل أربعة أشهر بحوالة بنكية باسم والدته التي يكن لها كل احترام وتقدير ؛ ولم لا؟! أليست هي أمه التي أُمِر ببرها ؟! أليست هي أمه التي ضحت بشبابها، وأفنت عمرها في سبيل تربية أولادها بعد أن قضى والدهم نحبه ؟!

بلى .. لقد كانت جديرة بكل احترام .. غير أن شيئاً غامضاً ـ لا أحد يعلم كنهه ـ يجعلها تفضل عليه أشقاءه ، بل يجعلها حانقة

عليه ، وضجرة منه في كثير من الأحيان إن لم يكن في كل الأحيان، وهو الذي يكاد يوقد لها أصابعه شموعاً لترضى عنه.

كانت ولا تزال حنونة رحيمة بأخيه الذي يصغره بعامين وبشقيقتيه، إلا أنها كانت شديدة القسوة معه منذ كان طفلا صغيراً، ولولا قامته الفارعة التي ورثها عن أمه، ولولا أن قسمات وجهه الخمري دليل صدق على امتزاج ملامحها وملامح أبيه فيه، ولولا الشبه الجلي بينه وبين إخوته لظن - على الأقل فيما بينه وبين نفسه - بأنه غريب عنهم من سوء المعاملة التي تعامله بها ..!

لا يزال يذكر تلك الليلة التي طردته فيها من البيت ، كان عمره حينئذٍ خمسة عشر عاماً، خرج هائماً على وجهه يتخبط في ليل حالك لا يدري إلى أين تقوده قدماه في ذلك الوقت المتأخر من الليل ، والليل في القرى ذو رهبة تشيب لها الرءوس ..! والليل في الشتاء كمارد مهول ترتجّ بين ضلوعها من هوله القلوب ..!

سرى والدموع تنهمر على وجنتيه حتى وجد نفسه أمام بيت صديقه الوحيد الذي لا يكاد يعرف من الدنيا سواه ، والذي يكبره بثلاثة أعوام تقريباً، وقف أمام الباب حائراً لبضع دقائق لكنه في لحظة أخذ القرار.. قرع الباب قرعاً خفيفاً كمن يحذر أن يسمعه أحد ، لكن هاجساً سرى في خفية إلى قلب صديقه الشاعر الذي اعتاد السهر ليلاً ليقتطف من الدهر ساعات الصفاء ، وأوقات الهدوء كي يهيم في عالم رحب من الأفكار والأحلام والرؤى ..!

هب صديقه من جلسته .. اتجه صوب الباب .. فتحه بسرعة فإذا بأحب الناس إلى قلبه ماثلاً أمامه ، شاخصاً إليه بصره ، وقد كست وجهه غلالة من ذل اليتم ، ومسكنة الضياع ، ووجل الخائف الوجم.. أخذه من يده .. أدخله في هدوء إلى غرفته ..جعل يستمع إليه بإصغاء حتى عرف قصته ، هدّأ من روعه ، ثم وعده بالذهاب إلى والدته في الصباح ليكلمها في هذا الأمر، لكن "أيمن" استعطفه

وألح عليه أن يذهب به إلى بيت عمته في مدينة تبعد عن قريتهما بعشرة أميال..!

وعده صديقه بتنفيذ رغبته في الصباح .. قدّم له عشاءً لكنه أبى زاعماً أنه تناول وجبة العشاء قبل أن يطرد من البيت، مع أن لونه الشاحب، وبريقه المنطفئ يدلان على أنه لم يذق طعاماً منذ الصباح ..! هكذا كان دائماً حيياً عفيف النفس..!

أعدّ له مكاناً للنوم .. ورغم أن المكان بسيط متواضع إلا أنه كان عامراً بالدفء ، مفعماً بالحنان والرضا والسكينة .. بات ليلته يفكر فيما سيئول إليه حاله، ويقوده عقله إلى عقد مقارنة بين والدته الصلبة العنيدة القاسية ، ووالدة صديقه اللينة المتسامحة الرحيمة التي لا تفرق بين أحد من أولادها الثمانية بل تعاملهم جميعاً معاملة قائمة على الحب والرحمة والاحترام .

من ثم كان لا يفتأ يغبط صديقه على هذه الأم التي لا يعدو حديثها أن يكون همساً، وإذا غضبت يكفي أن توجه إلى من غضبت منه نظرة عتاب تبث فيها كل معاني اللوم والتثريب فلا يملك إلا أن يطرق حياءً منها ، وسرعان ما يأتي إليها معتذرا.

لا يزال هذا المشهد القاتم الكامن في ذهنه، القابع في مخيلته يقض مضاجع ذاكرته ، ويطفو بين الحين والحين على سطح عقله كلما أثاره داعٍ من دواعي الظلم الذي يحيق به بين آونة وأخرى.

عاد مَن غربته ليجد والدته قد أنفقت كل أمواله التي أرسلها طوال سنوات الغربة في بناء بيت من طابقين ، وراعه ما وجده من ظلم مجحف حين علم أن أمه قد كتبت له شطر البيت ولشقيقه الأصغر الشطر الثاني ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أقامت لابنها الأصغر الذي لم يغترب ولم يذق في حياته مرارة الغربة بعض المشروعات التجارية إلى جانب وظيفته .

أحس "أيمن" كأن طعنات غدر نفذت إلى صدره ، لقد ذهب حصيد سنوات الغربة أدراج الرياح.. ثم أضحى بلا وظيفة ، وبلا مشروع يبدأ به حياته ويقتات من ورائه ، وليس معه مال يعينه على الزواج الذي لابد منه حتى يكتمل دينه .. كان عليه ألا يستسلم لليأس ، وألا يخلد إلى الندم ، ولهذا بدأ حياة جديدة من الكفاح المتواصل ، لم ينتظر الوظيفة كعادة كثير من الشباب ، وعمل مندوبا للمبيعات في إحدى الشركات كي يستطيع أن يجهز شقته ، ويوفر التكاليف اللازمة لتأسيس عش صغير للزوجية ..!

مرت السنوات تلتهم شبابه التهاماً يكد فيها ويشقى حتى حقق أمنيته وتزوج ومنَّ الله عليه بطفلة جميلة ملأت عليه حياته، لكنه لم يسلم من أذى أمه أو أخيه الذي فشل في كل المشروعات التي جاءته على طبق من ذهب .

وقف "أيمن" إلى جوار أخيه ، لم يألُ جهداً حتى انتشله من وبال الديون التي أغرق فيها نفسه، وأعانه على الزواج ، واختارت الأم أن تعيش في كنف ابنها الأصغر؛ إذ إن قلبها لم يميز من البشر سواه ، ذاقت الأمَرَّيْن من زوجته المتسلطة.. تعرضت للضرب والإهانة أكثر من مرة ، وابنها المدلل لا يملك وسيلة لردع زوجته؛ وكيف يردعها وهو لا حول له ولا قوة؟! لقد أذعن لزوجته منذ البداية، وبدا أمامها مغلوباً على أمره ، مسلوبةً منه إرادتُه.

بدت الأم القوية ، ذات القلب الحجري الصلد ضعيفة ذليلة مهيضة الجناح أمام زوجة ولدها الذي طالما أحبته ، ودللته ، وأعطته حقوقاً لم يكن أهلًا لها ، ولم يقدم في حياته ما يجعله جديراً بها.

لم تجد بُدّاً من اللجوء إلى ابنها الأكبر ذي القلب الحنون لتعيش في رحابه ، وتحتمي به من أذى زوجة الابن المتسلطة ، أشفق عليها ، وآواها ، ورجاها أن تظل معه بقية عمرها ، وأقسم

ليضعنها في عينيه، وكان بالفعل عند قسمه .. نسي ما كان منها حين قست عليه ، وحين حكمت عليه بتلك القسمة الجائرة ، نسي جفاءها وقسوتها وأذاها، وطفق يعاملها بحنان أكثر مما كان يعاملها به ليعوضها عن أيام الشقاء والإهانة التي تعرضت لها .

لكن قلبها لا يزال معلقا بابنها الآخر ، كانت تفتعل المشكلات مع زوجة ابنها الأكبر، وتختلق المعاذير لتهرب من هذا الجو الهادئ الحنون ، ولتخرج من حمى الابن البار الذي تستكثر عليه أن يثاب على برها ..!

عادت من جديد إلى الابن الأصغر ترتشف الذل ارتشافاً ، كأنما هو قدرها الذي لا تستطيع منه فكاكاً ، اضطرت زوجة الابن إلى أن تضع زوجها بين أمرين: إما أن يطلقها، وإما أن يوفر لها مسكناً بعيداً عن أمه التي لا تطيق الزوجة رؤيتها .

كعادته أذعن لمطالب زوجته ، وانتقل بها إلى محافظة نائية رغم توسلات أمه ، ونحيبها المتواصل ، لم تجد الأم سوى يدي ابنها الأكبر تمتد إليها في رفق لتمسح دموعها المتدفقة كالشلالات المندفعة، ولتربت في حنان على كتفها ، تطلعت إليه في حياء كأنما تريد أن تعتذر إليه، وتطلب منه أن يسامحها .. تجمد الكلام في فمها .. تحاول أن تحرك لسانها لكنه لا يطاوعها ، ارتعش فكّاها ، وجنح الفم جهة اليمين ثم تجمدت أعضاؤه ، حاولت النهوض من مقعدها فلم يستجب لها شقها الأيسر.. سقطت على الأرض ، صرخ "أيمن" :

- أمي .. ما بك؟!

نظرت إليه بعينين دامعتين نظرة بائسة كادت تمزق قلبه .. حملها هو وزوجته ووضعاها على السرير .. اتصل على الطبيب الذي أكد له أن المرض الذي ألم بها شلل نصفي ناشئ عن صدمة عصبية، قرر أن يعالجها حتى لو اضطر إلى بيع كل ما يملك ، طال مرضها، حتى اضطر إلى بيع أثاث منزله ، وكل الكماليات ، بل كل

الضروريات ، حتى أصبحت شقته خاوية على عروشها ، اقترض من زملائه وأصدقائه ، وتنقل بها من طبيب إلى طبيب ، ويضرع إلى ربه في جوف الليل حتى شفاها الله ، وبرئت من علتها ، وعادت إليها عافيتها.

التفتت إلى ابنها الذي لم يذق طعم النوم طوال فترة مرضها إلا سويعات معدودة ، ونظرت إليه بعينين مملوءتين بالرضا ، ثم قالت :

ـ ربنا يسعدك ، ويرضى عنك يا "أيمن" يا بني ، انت تعبت معايا كتير .

رد " أيمن" وعلى ثغره ابتسامة وضيئة :

ـ ربنا يعافيك ، ويتم شفاك ، ويطيل لنا في عمرك يا أمي .

ـ سامحني يا ابني على كل حاجة وحشة عملتها معاك .. أنا آذيتك كتير، وظلمتك كتير، وأعطيت تعبك وشقاك لواحد ما يستهلش..الله يسامحه.

ـ على كل حال هو أخي ، وواجب عليّ أن أساعده .

ـ ربنا يبارك لك في صحتك ، ويرزقك، ويعوض عليك يا ابني.

التفت إلى شقته التي أصبحت كالطلل، وإلى زوجته التي باعت حليها لتساند زوجها، وابنته التي شارفت دخول المدرسة، والديون المتراكمة .. ضاعف ساعات العمل ، لم يعد لديه وقت لرؤية ابنته ، ولا أن يطالع صفحة في كتاب من الكتب وهو المولع بالقراءة منذ نعومة أظفاره .

لم يجد مفراً من التفكير ثانية في السفر إلى إحدى الدول العربية كي يتمكن من تحسين مستوى معيشته ، وقضاء ما عليه من دين ، تردد على مكاتب السفر ، في كل مكتب يترك سيرته الذاتية ، وينتظر ريثما يتلقى منهم مكالمة هاتفية ..!

ذات نهار تلقى مكالمة من أحد المكاتب يستدعيه لإجراء مقابلة شخصية ، نهض على الفور.. جهز نفسه وانتقل إلى القاهرة.. اجتاز الامتحان بجدارة ولفت إليه الأنظار، بل سحرهم بلباقته ، وفطنته وذكائه ، وخبرته في مجال تخصصه..عرضوا عليه الراتب لكنه رفض ، رغم حاجته الشديدة لهذا السفر ، هو يدرك أن إمكاناته أكبر بكثير من هذا الراتب المقرر له ، وهو يعلم أنهم مقتنعون به أيما اقتناع؛ لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة .. تركهم وعاد إلى قريته .

تلقى مكالمة ثانية وثالثة وعاشرة من نفس المكتب في كل مرة يزيد الراتب بمقدار مائة جنيه حتى وصل الراتب إلى حد يرضيه ، وقف أمام المرآة .. هاله ما رأى ؛ لقد وجد الشيب تسلل إلى صفحتي رأسه كخيوط ضوء الصبح حين تتسلل إلى صفحة الليل البهيم فما تلبث أن تقضي عليه وتحتل مكانه ، تنهد طويلا ، وقال في أسى :

ـ رحمك الله يا أبا العلاء ، لقد صدقت حين قلت :

تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب في ازديادِ

هاأنذا قد جاوزت حد الأربعين ، أ مازالت أمامي الفرصة لأبدأ حياتي من جديد؟! أما زلت قادراً على العطاء؟!

هل كنت محقا حينما فكرت في السفر ؟! ما كان أغناني عنه، لو.. سبحانك يا ربي لك حكمة ومشيئة نعجز عن فهم أسرارها..!

هيأ نفسه للسفر ، أخذ حقيبته ، ودّع زوجته ، وابنته ، ووالدته التي ذرفت في لحظة الوداع دموع الندم ، وشيعته عيون الأصدقاء ، ومضى في طريقه يسير، وفي عينيه بريق أمل جديد .. حتى غرق في أمواج البشر المتلاطمة ، وغاب عن أعين مودعيه لكنهم مازالوا يرونه بعيون قلوبهم ، ولازالت ألسنتهم تلهج بالدعاء له